جمع القرآن الكريم في عهد النبي ﷺ
إشكالات وتساؤلات

بقلم
د/ كمال قدة
معهد الآداب واللغات ـ المركز الجامعي بالوادي

ملخص

لقد مرَّ جمع القرآن الكريم بمحطتين رئيسيتين: الأولى وتتمثل في جمعه بمعنى حفظه في صدور عدد كبير من الصحابة؛ والثانية في جمعه بمعنى كتابته في السطور على قطع بدائية غير متجانسة كالرقاع والأقتاب والحجارة والعظام...وغيرها. وفي كلتا المحطتين إشكالات وتساؤلات حول اللسان الذي كتب القرآن الكريم به في عهد النبي ﷺ، وكذا أحرف القبائل التي تكتب وتقرأ القرآن على تلك الوسائل. وفيما يلي عرض موجز لأهم تلك التساؤلات وأجوبتها.

Résumé:

Le processus de collecte du Coran a adopté deux phases. La première consiste à enregistrer le Coran dans les cœur des compagnons (sahaba), la seconde consiste à écrire le Coran sur des morceaux primitifs et non homogène comme el-rikaa, el-ektab, des pierres et des os … et autres. Il y a des problèmes dans les deux phases du collection du Coran sur la langue dont le Coran a été ecrit à l'époque du prophète, ainsi que les caractères du tribus qui écrivent et lisent le Coran. Ce qui suit est un résumé des plus importantes de ces questions et réponses.

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل الكتاب ولم يجعل له عوجًا، وجعله سراجًا منيرًا للسالكين سبيله، ويسر لنقله إلينا من اختاره ووفقه من أئمة الهدى، فوصل إلينا غضًّا طريا كما أنزل، لم تصل إليه يد التبديل والتحريف، ولم تطمح إلى النيل منه أطماع الجاحدين والمعاندين، فكان ذلك مصداقًا لقوله جلَّ ذِكره في كتابه الحكيم: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر9].

وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، بعثه الله في الأمة الأمية، فعلمها ونصحها، فقامت بحفظ كتاب ربِّها، ونقلته إلينا كما أنزل، على أدق أوجه التحري والإتقان.

أما بعد، فلا يخفى ما للقرآن العظيم من مكانة عند المسلمين، فهو كتاب ربهم وشرعه ودستوره الذي ارتضاه للناس إلى يوم الدين، وهو معجزة نبيهم التي تحدى بِها العرب والعجم.

وقد لقي القرآن من المسلمين على مرّ العصور أبلغ العناية، وحظي بأقصى درجات الحرص والحيطة، فكان أهل كل عصر يجتهدون في المحافظة عليه بشتى الوسائل التي تتاح لهم، فلم يخل عصر من العصور، ولم يخل مصر من الأمصار، من حامل للقرآن، يقوم به آناء الليل وأطراف النهار، كما لم يخل من مصحف شريف، سطرت فيه آيات القرآن، وحفظت من التحريف.

ففي زمن النبي ﷺ اجتهد صلوات الله وسلامه عليه في حفظ القرآن الكريم، حتى كان يعجل بحفظ القرآن حال نزوله عليه، إلى أن طمأنه الله بأن تحفيظه مضمون عليه، فقال: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ [القيامة17، 18] كما حفظ القرآن خلائق لا يحصون من أصحابه ؟. وفي ذلك العصر دوِّن القرآن الكريم بين يدي النبي ﷺ فكان ذلك التدوين درعًا لكتاب الله وحافظًا له من الضياع والتحريف.

ثم انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وخرج حفاظ القرآن إلى المواطن يجاهدون في سبيل الله فاستحر فيهم القتل، ففزع أصحاب رسول الله ﷺ فأشار الفاروق عمر

على أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ بأن يجمع القرآن خوفًا عليه من الضياع، فكان ما أراد، وحفظ الله كتابه فصدَّق ما وعد به من التكفل بحفظه.

وفي زمن عثمان ﷺ، كادت فتنةٌ عظيمةٌ تقع بين المسلمين في الأمصار بسبب الاختلاف في حروف القراءات، فقام الإمام ومن معه من الأصحاب، فنسخوا المصاحف، وأرسلوها إلى الأمصار، وأرسلوا معها معلمين، يقرئون الناس بِها، فصارت هذه المصاحف مراجع لأهل تلك البلدان، واستقامت قراءاتِهم على قراءة من أرسل إليهم من القراء.

واستمرت محافظة المسلمين على القرآن، واجتهادهم في ضبط وكتابة الكتاب المبين، بِما حفظه ـ بإذن الله ـ من التبديل والتحريف، فلم يعدم أهل كل عصر أن يجدوا ما يبذلونه في سبيل حفظ كتاب الله، حتى صار المسلمون على مرِّ الزمان مشاركين جميعا في المحافظة على القرآن الكريم.

حتى في عصرنا الحاضر، مع ما منَّ الله به علينا من النعم العظيمة، وأظهر على أيدي بني آدم من الابتكارات النافعة المفيدة، وجه الله بصيرة بعض المعاصرين إلى ضرورة الاستفادة من الوسائل الحديثة في حفظ القرآن الكريم، فكان مشروع العصر، متمثلاً في الجمع الصوتي للقرآن الكريم، فكان غيثًا في عصر أجدبت فيه الألسن، فما عادت تنطق بالفصيح، وكان ذلك العمل حفظًا لكتاب الله، بحفظ تلاوات الأئمة من القراء المجودين.

لقد مر جمع القرآن الكريم بمحطتين رئيسيتين: الأولى وتتمثل في جمعه بمعنى حفظه في الصدور والثانية جمعه بمعنى كتابته في السطور، وفي كلا المحطتين إشكالات وتساؤلات حري بكل دارس للكتاب العزيز أن يكون على اطلاع قريب منها ليفك إشكالها ويزيل إبهامها .

لقد ورد في مسألة الجمع أحاديث صحيحة يوهم ظاهرها تداخلا في تحديد أسماء الحفظة الذين جمعوا القرآن الكريم في صدورهم وكذا الأمر بالنسبة لعددهم، وقد حاولت في هذا المقال أن أرفع اللبس وذلك بجمع أحاديث الباب الواردة في هذه المسألة ودفع تعارضها ومناقشة مسائلها نقاشا علميا يحل الإشكال ويدفع اللبس والإبهام.

كما أن نسخة القرآن الأم كتبت بين يدي النبي ﷺ كما كتب الصحابة لأنفسهم نسخا متعددة، والكتابة بشكل عام كانت على قطع بدائية غير متجانسة كالرقاع والأقتاب والحجارة والعظام...وغيرها.

والسؤال المطروح هنا: على أي لسان كان يكتب القرآن الكريم في عهد النبي ﷺ ؟ هل على لسان قريش، أم على لسان غيرها من القبائل، وبمعنى آخر هل كتب على حرف واحد أم عدة أحرف من الأحرف السبعة؟.

إن كانت الثانية [على عدة أحرف] كيف كان الكتبة يتصرفون ووسائل الكتابة بدائية غير متجانسة وأدواتها محدودة جدا، وحروف الآيات كبيرة، والقطع المكتوب عليها لا تكاد تسع السطور المتقاربة؟.

كيف كانت أحرف هذه القبائل تكتب وتقرأ على هذه الوسائل والحالة كما وصفنا، هذا من جهة ومن جهة أخرى هل كان يرجع لهذه القطع للتثبت من المحفوظ أم كانت مجرد آلة مساعدة على الاستذكار؟.

هذه الإشكالات وغيرها من التساؤلات حاولت تذليلها في هذه الصفحات والإجابة عنها بما يفي حق السؤال.

أولا ـ الجمع بمعنى الحفظ في الصدور:

وقد تحقق ذلك بحفظ الرسول ﷺ له ـ كما سبق وأن مر بنا ـ فقد كان ﷺ شديد الحرص على الحفظ حتى إنه ليحرك به لسانه مسرعا في القراءة، قبل فراغ الوحي من النزول مخافة النسيان، فطمأنه الله عز وجلّ ووعد بحفظه عليه وعدم ضياعه، قال عز وجلّ: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. فإذا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة17،18] وقال عز وجلّ:﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ [الأعلى6].

وبذلك كان رسول الله ﷺ أول الحفاظ للقرآن الكريم، كما كان هناك من الصحابة من يحفظ القرآن في حياته عليه الصلاة والسلام.

ـ الحفاظ من الصحابة على عهده ﷺ :

وصفت أمة النبي ﷺ بأن مصاحفهم في صدورهم بخلاف غيرهم من أهل الكتب السابقة، تلقوه من رسول الله ﷺ حرفا حرفا، ووعوه ابتداء ووقفا، وأحاطوا

بحركاته وسكناته، فاستقر في صدورهم كما أنزل، ما دخل عليهم فيه وهم ولا شك، ولا خالطته شائبة تردد، وكان من الصحابة من حفظ القرآن كله عن ظهر قلب، ومنه من حفظ بعضه على حسب اقتداره وفراغه وملازمته للحضرة النبوية والذين حفظوا القرآن كله وأكملوه في حياة النبي ﷺ مهاجرين وأنصارا كانوا جما غفيرا.

عن قتادة قال:« سألت أنس بن مالك مَنْ جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ؟ فقال: أربعة كلهم من الأنصار أبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد قلت: من أبو زيد ؟ قال: أحد عمومتي»[1].

وعن أنس قال: « مات رسول الله ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد[2] ».

وعن عبد الله بن عمرو قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول:خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود وسالم ومعاذ وأبي بن كعب[3]».

ذكر هذا العدد لا يعني الحصر، فالنصوص الواردة في كتب السنن والسير تؤكد أن عدد الحفظة من الصحابة كان كثيرا، فلعل أنسا ذكر هؤلاء الأربعة دون غيرهم لشدة تعلقه بهم، أو لكونهم كانوا حاضرين في ذهنه لما سئل[4].

ففي الحديثين أن أنسا نفسه سئل عمن جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ فذكر مرة "أُبَيًّا" وذكر مرة أخرى أبا الدرداء، فتعين بذلك أن الحصر إضافي وليس حقيقيا.

ويحتمل أن يكون مراد أنس أنه لم يجمعه غيرهم من الأوس بقرينة المفاخرة المذكورة، فقد جاء في الحديث عن قتادة: «افتخر الأوس والخزرج فقال الأوس: منّا أربعة: من اهتز له العرش سعد بن معاذ، ومن عدلت شهادته شهادة رجلين خزيمة بن ثابت، ومن غسلته الملائكة حنظلة بن أبي عامر، ومن حمته الدبر عاصم بن ثابت، فقال الخزرج منّا أربعة جمعوا القرآن لم يجمعه غيرهم فذكروهم.. »[5] .

وما جاء في قوله ﷺ « خذوا القرآن عن أربعة.. » ظاهره والله أعلم أن النبي ﷺ أمر بالأخذ عنهم في الوقت الذي صدر فيه ذلك القول[6]، ولا يلزم منه أنه لم يشاركهم أحد في حفظه، وقد ورد أن الذين قتلوا من الصحابة في غزوة بئر معونة، كان يقال لهم القراء وكانوا سبعين رجلا[7].

وقد يكون هؤلاء الأربعة أكثر ضبطا لألفاظه وأتقن لأدائه، وإن كان غيرهم أفقه منهم في معانيه.

أو أن هؤلاء الأربعة تفرغوا لأخذه عن النبي ﷺ مشافهة دون غيرهم الذين اقتصروا على أخذه بعضهم من بعض، أو أن هؤلاء تفرغوا لأن يؤخذ عنهم، أو أنه ﷺ أراد الإعلام بما يكون بعد وفاته من تقدم هؤلاء الأربعة وتمكنهم، وأنهم أقعد من غيرهم في ذلك.

ومما يؤكد عدم انحصار العدد في الأسماء التي ذكرت، قول عبادة بن الصامت ﷺ: « كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي ﷺ إلى رجل منّا يعلمه القرآن وكان يسمع لمسجد رسول الله ﷺضجة بتلاوة القرآن حتى أمرهم رسول الله ﷺ أن يخفظوا أصواتهم لئلا يتغالطوا[8] ».

وذكر ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ أسماء من جمع القرآن حفظا وأضاف زيادة على من ذكر، عثمان بن عفان[9] ﷺ بل كان من النساء في عهده ﷺ من تحفظ القرآن.

قال الإمام السيوطي ـ رحمه الله ـ :" ظفرت بامرأة من الصحابيات جمعت القرآن، لم يعهدها ممن تكلم في ذلك، وهي أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث، وكان رسول الله ﷺ يزورها ويسميها الشهيدة، وقد جمعت القرآن وأمرها رسول الله ﷺ أن تؤم أهل دارها".[10]

قال أبو شامة المقدسي ـ رحمه الله ـ: "وحفظه في حياته ﷺ جماعة من أصحابه، وكل قطعة منه أي من الصحف أو العسب ...التي كان يكتب عليها القرآن كان يحفظها جماعة كثيرة أقلهم بالغون حد التواتر"[11].

وهكذا تبين أن عدد الحفاظ على عهد رسول الله ﷺ كان جما غفيرا، منهم من حفظ القرآن كله ومنهم من حفظ أكثره ومنهم من حفظ بعضه، فكان فيهم الخلفاء الأربعة، وطلحة وسعد وابن مسعود وحذيفة وسالم وأبو هريرة وابن عمر وابن عباس وعمر بن العاص وابنه عبد الله ومعاوية، وابن الزبير وعبد الله بن السائب وعائشة وحفصة وأم سلمة وهؤلاء كلهم من المهاجرين، ومن الأنصار أبي بن كعب ومعاذ بن جبل وأبو الدرداء وزيد بن ثابت وأبو زيد وأنس بن مالك ﷺ

أجمعين[12]، ومن هنا كانت قراءة الأئمة العشرة تنتهي إلى المشهورين بالحفظ من هؤلاء الصحابة الكرام، والتي بدورها تنتهي إلى النبي ﷺ.

ـ عوامل حفظ القرآن الخاصة بالصحابة ﷺ:

1- القرآن الكريم هو المصدر الأول للتشريع، وقد كان الصحابة ﷺ أميين في غالبيتهم، فلم يكن لديهم وسيلة لمعرفة معانيه التي يستطيعون فهمها دون رجوع إلى النبي ﷺ سوى حفظه.

2- ما ورد من أن القرآن يشفع يوم القيامة لمن كان من قرائه في الدنيا.

3- ما ورد من الترغيب في حفظ القرآن والترهيب من نسيانه.

4- التعبد بالقرآن في الصلاة وخارجها.

فكل هذه العوامل وغيرها، كانت مساعدة للصحابة ﷺ على حفظ القرآن وجمعه في الصدور.

ثانيا: الجمع بمعنى كتابته:

كان القرآن ينزل شيئا فشيئا، وكان كلما نزل منه شيء بادر النبي ﷺ بتبليغه لأصحابه وحثّ على تعلّمه وتعليمه، ولم يكتف بحفظ القرآن وإقرائه لأصحابه وحفظهم له، بل جمع إلى ذلك كتابته وتقييده في السطور، ليعاضد المحفوظ المنقوش ويقوي المقروء المكتوب، وكان للنبي ﷺ من بين أصحابه من يختص لكتابة الوحي عقب نزوله، وبعد إخبار النبيﷺ أصحابه بما نزل، وكان هؤلاء ممن برعوا في الكتابة، ووضع النبي ﷺ فيهم ثقته لأنهم مع براعتهم في الكتابة، جمعوا فضائل الكاتب من الأمانة والضبط وإرهاف السمع ووعي القلب وناهيك باختيار النبي ﷺ إياهم كتابا للقرآن ونيلهم هذا الشرف العظيم، هؤلاء الكُتَّاب كتبوا آيات القرآن كما أملاها رسول الله ﷺ، وما نزلت آية أو آيات إلا وقد أمر الرسول ﷺ أن يضعها بحسب سورة كذا، وكان عليه أفضل الصلاة والسلام يرشد الكاتب إلى كيفية الكتابة على حسب ما يرشده إلى ذلك أمين الوحي جبريل عليه السلام، وكانت كتابة القرآن ملتزمة منهم حتى زمن الاختفاء والاضطهاد في أول الإسلام، لما كان المسلمون المستضعفون يتدارسون القرآن من الصحائف في البيوت، ومن شواهد ذلك حادثة عمر قبل إسلامه وقراءته للصحيفة قي بيت أخته فاطمة [13].

فمسألة كتابة القرآن كله بين يدي النبي ﷺ منعقد عليها إجماع الأمة سلفا وخلفا، وقد استند هذا الإجماع إلى نصوص كثيرة كلها تشهد بذلك منها:

1. عن عثمان بن عفان ﷺ قال: « كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان ينزل عليه من السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده فيقول:ضعوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا..[14] » الحديث.

2. عن زيد بن ثابت ﷺ قال: «كنت أكتب الوحي عند رسول الله ﷺ وهو يملي علي، فإذا فرغت قال: إقرأ فان كان فيه سقط أقامه[15] ».

3. عن زيد بن ثابت ﷺ قال: أرسل إليّ أبو بكر فقال: « إنك كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ ...[16] ».

4. عن البراء ﷺ قال: « لما نزلت ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين﴾ قال النبيﷺ:أدعوا فلانا فجاءه ومعه الدواة واللوح أو الكتف فقال: أكتب: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين ...﴾ ».[17]

وهكذا اتضح أن النبي ﷺ كتب القرآن الكريم كله أولا بأول، فكلما نزلت عليه سورة أو بعض سورة أو مجموعة من الآيات أو حتى جزء من آية إلاّ وأمر الكتبة من أصحابه فيكتبون بين يديه على ما تيسر لهم من أدوات الكتابة المعروفة في ذلك العصر.

ولمزيد بيان في هذه المسألة نتناول كيفية الكتابة في النقاط التالية:

ـ كُتّاب الوحي:

أشهر الأحاديث التي رويت في كتابة الوحي، تنتهي إلى زيد بن ثابت مما يوهم أنه الوحيد الذي كان يكتبه للنبي ﷺ والحق أن الذي كتب الوحي جماعة منهم زيد وإن كان زيد أشهرهم[18]، دلّ على ذلك:

أ/ حديث عثمان:«...فكان إذا نزل عليه شيء يدعو بعض من يكتب عنده ...».

ب/ تأخر إسلام زيد، فقد كان من الأنصار وأسلم بعد الهجرة، وكتب الوحي قبل زيد أبي بن كعب وهو أول من كتب له بالمدينة وأول من كتب له بمكة من قريش عبد الله بن أسعد بن أبي السّراح[19].

فأشهر كُتّاب الوحي هم:زيد بن ثابت وأبي بن كعب والخلفاء الأربعة، والزبير بن العوام وخالد وأبان ابنا سعيد بن العاص بن أمية، وحنظله بن الربيع الأسدي،

ومعقب بن أبي فاطمة وعبد الله بن الأرقم الزهري وشرحبيل بن حسنة، وعبد الله ابن رواحه.[20]

ـ وسائل الكتابة:

لم تكن أدوات الكتابة ميسورة في ذلك العهد، ومن هنا كان التعويل على الحفظ في الصدور يفوق التعويل على حفظ السطور، ومع ذلك فقد حظي القرآن الكريم بأوفى نصيب من عنايته ﷺ وعناية أصحابه الكرام، فلم تصرفهم عنايتهم باستظهاره وحفظه عن عنايتهم بكتابته ونقشه، وذلك بمقدار ما سمحت به وسائل الكتابة وأدواتها في ذلك العصر.

وقد وردت أحاديث متفرقة تذكر في مجملها أهم الوسائل التي اعتمدها الصحابة في حفظ[21] المكتوب ، فذكرت بعضها العسب واللخاف والرقاع، وفي رواية قطع الأديم والحرير وفي أخرى جرائد النخيل، والألواح وأكتاف الإبل[22].

عن زيد بن ثابت ﷺ قال: « فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال.. »[23].

وعن البراء قال: لما نزلت ﴿ لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء 95] قال النبي ﷺ : « ادعوا فلانا فجاءه ومعه الدواة واللوح أو الكتف..[24] » .

وعن يحيى بن عبد الرحمن قال:قدم عمر فقال: «من تلقى من رسول الله ﷺ شيئا من القرآن فليأت به، وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعسب..»[25].

وإن تعددت الروايات في وصف الوسائل التي اتخذها الصحابة في كتابة الوحي، فهي في مجملها لا تخرج عن أدوات ذلك العصر. والشاهد في هذه المسألة أن القرآن كله قد كتب بين يديه ﷺ فور نزوله وبالوسائل المتاحة ساعة النزول، وكذلك كتب بعض الصحابة القرآن أو ما تيسر منه، وإن لم تبلغ كتاباتهم في الوثوق مبلغ ما كتب بين يديه ﷺ.

ـ كتابته على هذه الوسائل:

هذه المخطوطات على هيئتها المعروفة، لم تكن تمثل مجموعة متجانسة ومنظمة ومرقمة، كما أن الرسول ﷺ لم يكن عنده شيء مكتوب في شكله النهائي، كما أنه لم يكن للصحابة في هذه الفترة نسخة واحدة كاملة من القرآن الكريم، وإنما كانت المخطوطات متفرقة ومبعثرة بين المؤمنين، ولم تأخذ شكلها النهائي

في صدور الصحابة إلا قبيل وفاة النبي ﷺ وحتى تتاح الفرصة لسور القرآن لكي يتم بناؤها تدريجيا، كان ينبغي الانتظار إلى أن يكتمل الوحي كله لإخراج القرآن في شكل وحدة كاملة.[26]

والأمر الذي يجب التنبيه إليه هو أن القرآن كله كان مكتوبا عند الصحابة، وإن لم يكن مكتوبا عند بعضهم أو عند واحد منهم بعينه، فإن ذلك لم يكن منفيا عن جميعهم، فهو مكتوب عند جميعهم وما ينقص عند واحد يكمله ما عند الآخرين وهكذا تضافروا على نقله مكتوبا وإن تقاصر بعضهم عن كتابته كمل الآخر، وكان الكمال النقلي جماعيا وليس أحاديا، والله أعلم.

ـ الأسباب التي أدت إلى عدم كتابته مرتبا في مصحف واحد:

1. لم يظهر في عهد الرسول ﷺ ما يحتم كتابته في صحف أو مصاحف، كما حدث في عهد أبي بكر ﷺ من استشهاد لكثير من القراء وحفظة القرآن حتى جمعه في الصحف، ولا ما وقع في عهد عثمان ﷺ من الفتن حتى نسخه في المصاحف، بل كان المعول عليه أولا هو الحفظ في الصدور.

2. توقعه ﷺ لنزول الوحي إلى آخر يوم من حياته، فقد نزل عليه الوحي بنسخ أو زيادة ما شاء الله من الآيات.[27]

وفي هذا يقول الزركشي: "وإنما لم يكتب في عهد النبي ﷺ مصحف، لئلا يفضي إلى تغييره في كل وقت "[28].

3. ترتيب القرآن لم يكن على حسب النزول وإنما على حسب المناسبات والروابط البلاغية والعلاقات المعنوية، والوحدة الموضوعية، فقد تنزل الآية بعد الآية بسنين طويلة، ومع ذلك تكون في ترتيب السورة التي قبلها.

4. ضرورة تفرقه في العسب واللخاف والأكتاف.. حال دون ترتيب الآيات والسور، أما ما كتب في القطعة الواحدة بين يديه ﷺ فقد كان مرتب الآيات بلا ريب[29].

وما يجب أن نؤكد عليه هاهنا، أن غياب التتابع بين الآيات المكتوبة في هذه المرحلة لم يحل بين الصحابة وبين المعرفة الشفوية لموضع كل آية جديدة في سورتها على وجه التحديد، وفي كل مرحلة من مراحل النزول.

ـ أهمية هذه الوسائل:

ولنا أن نتساءل بعد ذلك عن الغاية من استعمال هذه الوسائل في حفظ المكتوب، هل كان يرجع إليها للتثبت من الحفظ والقراءة ؟ أم كانت مجرد وثائق محفوظة ؟.

الأصل أن العرب أمة يغلب عليها طابع الأمية وهو ما جعلها تعتمد على الحفظ أكثر من اعتمادها على الكتابة، حتى كانت قلوبهم أناجيلهم، وعقولهم سجلات أنسابهم وأيامهم، وحوافظهم دواوين أشعارهم ومفاخرهم.

فالمعول عليه وقتئذ هو الحفظ والاستظهار، وإنما اعتمد على الكتابة وعلى هذه الوسائل كمصدر من المصادر، زيادة في الاحتياط ومبالغة في الدقة والحذر[30].

أضف إلى ذلك أن الصحابة ﷺ كانت تجمعهم لقاءات كثيرة يتذاكرون فيها القرآن ويتدارسونه، والخطأ في القراءة كان مأمونا لكون الرسول ﷺ بين أظهرهم.

لذا أستبعد أن يكون الصحابة ﷺ قد اتخذوا هذه الوسائل كمرجع أولي يعودون إليه للتثبت من حفظهم وقراءتهم، وإن كان لهذه الوسائل من أهمية بالغة فهي تبرز في مرحلة لاحقة، يغيب فيها النبي ﷺ بموته وانقطاعه عن الدنيا لتكون هذه المخطوطات من رقع وعسب ولخاف... عمدة لا تقل أهمية عن الحفظ في الصدور، والله أعلم.

خلاصة القول: أن القرآن الكريم كتب كله في حياة النبي ﷺ في حضرته وبأمر منه وحفظه أصحابه ﷺ سورا وآيات، وكلمات وحروفا مع الضبط والإتقان، ولم ينتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى إلا والقرآن الكريم كله مكتوب في السطور محفوظ في الصدور مرتب الآيات في السور، حسب إرشاد جبريل عليه السلام للنبي ﷺ.

ـ الحرف الذي كتب عليه القرآن:

كان القرآن الكريم في العهد المكي ينزل على حرف قريش فقط، ومعلوم أن أكثر القرآن نزل في هذا العهد، ثم ظل ينزل بعد الهجرة على حرف قريش فقط إلى

أن دخل في الإسلام قبائل من العرب كان يصعب عليها أن تقرأ القرآن بحرف قريش، لاختلاف لغاتها في بعض الألفاظ عن لغة قريش، فنزلت بقية الأحرف السبعة توسعة وتيسيرا، فكان يقرأ بها من شاء، لاسيما من يصعب عليه النطق بلغة قريش، وكان من شاء من الصحابة أن يكتب مصحفه على حرف من الأحرف السبعة كتبه على الحرف الذي يختاره، فكلها قرآن منزل من عند الله، أما النبي ﷺ فيحتمل أنه كان يأمر بكتابته على حرف واحد أو على أكثر من حرف.

أقرب الاحتمالين إلى الصواب ـ والله أعلم ـ أنه كان يأمر بكتابته على حرف قريش، لأنه الأصل في نزول القرآن، حيث إن معظم القرآن إنما نزل عليه أولا على حرف فقط، ولم ينزل على الأحرف الأخرى إلا حين دعت الضرورة إلى ذلك، ولأنه لو كتبه على جميع الأحرف السبعة، لكان ذلك إما في نسخة واحدة وإما في نسخ متعددة، بعدد هذه الأحرف.

ـ **الحالة الأولى**[31]: قد توهم القارئ أنها نزلت ليقرأ بها دفعة واحدة والأمر ليس كذلك، فهي إنما نزلت ليقرأ كل امرئ بما تيسر عليه منها، كما أنه يترتب على وجودها في نسخة واحدة تشويش على القارئ حين يتخير واحدا منها يقرأ به في كل موضع.

ـ **الحالة الثانية**[32]: يلزمها من الحرج والمشقة ما لا يخفى، لا سيما إذا لاحظنا أن القرآن كان يكتب على أشياء غير متجانسة من عسب، ولخاف، وأقتاب...وغيرها، فكان المتيسر هو كتابته على حرف واحد، وحرف قريش هو أولى بالاختيار، لأنه الأصل في نزول القرآن.

قد يسأل سائل: عن المواضع التي اختلفت فيها رسم المصاحف بالزيادة والنقصان كزيادة ﴿ مِنْ ﴾ وحذفها في قوله تعالى ﴿ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَار ﴾ [التوبة 101] حيث ثبتت في المصحف المكي وحذفت في غيره، كيف كانت تكتب هذه الزيادات ؟.

الجواب: بداية مثل هذه الزيادات لا علاقة لها بالأحرف، فالأحرف غير هذا، ثم إن كل موضع من هذه المواضع نزل بالأمرين معا، ويحتمل أن النبي عليه الصلاة والسلام أمر كاتبا بكتابته على وجه وأمر آخر بكتابته على وجه آخر، أو

أعلم بذلك شخصا واحدا وأمر بكتابته على الوجهين في صحيفة واحدة، وقد نفهم هذا من إلحاق زيد الآية التي في سورة النساء وهي قوله تعالى: ﴿غَيْرَ أُولي الضَّرَرِ﴾ فقد نزلت بعد أن كتب ﴿ لاَ يستوي الْقَاعدُونَ منَ المُؤمنينَ والمْجَاهدُونَ في سَبيل الله ...﴾ [النساء 94] قال زيد بن ثابت: "فو الله لكأني أنظر إلى ملحقها عند صدع كفي الكتف" يؤخذ من هذه الإضافة بين السطور أن ما شاكلها من الوجوه التي تحوي زيادة ونقصانا، أو تقديما وتأخيرا في آن واحد يمكن أن يكتب بهذه الطريقة بين السطور، ويمكن أن يكتب في قطعة مستقلة مع وجود علامة تدل على موضعها وأنها من سورة كذا أو يمكن أن تكتب على هامش الصحيفة[33].

وأيا كان الأمر فإن القرآن الكريم قد ثبت تسجيلا ومشافهة على عهد رسول الله ﷺ وأن المشافهة كانت تضم حروفا لم يعرفها التسجيل، وأن مراجعة النبي ﷺ للنص القرآني في كل عام كانت ضمانا وثيقا لسلامة النص من النقص والزيادة والتحريف حتى كانت العرضة الأخيرة، والله أعلم.

الخاتمة

وقبل طي آخر هذه الصفحات نورد أهم النتائج المتوصل إليها:

1. الصحابة الكرام تلقوا القرآن الكريم من النبي ﷺ حرفا حرفا ووعوه ابتداء ووقفا وأحاطوا بحركاته وسكناته.

2. الأحاديث الواردة في حصر عدد الحفاظ من الصحابة لا تؤخذ على ظاهرها، والعدد لا يعني الحصر، فهو حصر إضافي وليس حصرا حقيقيا.

3. مسألة كتابة القرآن الكريم كله بين يدي النبي ﷺ منعقد عليها إجماع الأمة خلفا وسلفا.

4. أشهر الأحاديث التي رويت في كتابة الوحي تنتهي إلى زيد بن ثابت رضي الله عنه، ومع هذا فكُتّاب الوحي كثيرون وزيد أشهرهم.

5. على الرغم من قلة وسائل الكتابة وبدائيتها وصعوبة التدوين بشكل عام ومع ذلك فقد كتب القرآن الكريم كله.

6. مخطوطات القرآن الكريم التي كتبت على عهد رسول الله ﷺ لم تكن تمثل مجموعة متجانسة ومنظمة ومرقمة، كما أن الرسول ﷺ لم يكن عنده شيء مكتوب

في شكله النهائي، كما أنه لم يكن للصحابة في هذه الفترة نسخة واحدة كاملة من القرآن الكريم، وإنما كانت المخطوطات متفرقة ومبعثرة بين يدي المؤمنين، ولم تأخذ شكلها النهائي في صدور الصحابة إلا قبيل وفاة النبي ﷺ وحتى تتاح الفرصة لسور القرآن لكي يتم بناؤها تدريجيا، كان ينبغي الانتظار إلى أن يكتمل الوحي كله لإخراج القرآن في شكل وحدة كاملة.

7. المعول عليه في زمن التلقي هو الحفظ والاستظهار، وإنما اعتمد على الكتابة وعلى هذه الوسائل كمصدر من المصادر، زيادة في الاحتياط ومبالغة في الدقة والحذر.

8. أما الحرف الذي كتب عليه القرآن في عهد النبي ﷺ فأقرب الاحتمالات إلى أنه حرف قريش، لأنه الأصل في نزول القرآن، حيث إن معظم القرآن إنما نزل عليه أولا، ولم ينزل على الأحرف الأخرى إلا حين دعت الضرورة إلى ذلك، ولأنه لو كتبه على جميع الأحرف السبعة، لكان ذلك إما في نسخة واحدة وإما في نسخ متعددة، بعدد هذه الأحرف.

ـ الهوامش:

1 – رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، حديث رقم : 5003، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، ترقيم وتبويب محمد فؤاد عبد الباقي طبعة دار المعرفة (بدون تاريخ) ج9.ص47.

2 – رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، حديث رقم : 5004، فتح الباري ج9.ص47.

3 – رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، حديث رقم : 4999، فتح الباري ج9.ص46.

4 – فتح الباري ج9.ص52.

5 – ذكره ابن حجر من طريق سعد بن أبي عروبه عن قتادة وسكت عنه فتح الباري ح9.ص 51.

6 – الإبانة عن معاني القراءات القراءات، مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق د.محمد الدين رمضان دار المأمون للتراث ط1 سنة 1979، ص71 .

7 – فتح الباري لابن حجر.ج9.ص48 .

8 – رواه أحمد في المسند، طبعة دار صادر بيروت (بدون تاريخ)، باقي مسند الأنصار ج5. ص315 و رواه أبو داوود في كتاب البيوع باب أجر معلم القرآن حديث رقم 3416 ج3.ص264. ورمز له الألباني بالصحة في صحيح سنن أبي داود كتاب الإجارة باب في كسب المعلم (صحيح سنن أبي داوود، اختصر أسانيده وعلق عليه وفهرسه زهير الشاويش، الناشر مكتب التربية العربي لدول الخليج 1 سنة 1989) حديث رقم 6916،ج2. ص655 .

9 – كتاب المجتبى في علوم مختلفة تتعلق بالقرآن المجيد لابن الجوزي، وهو كتاب مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم 28 مجاميع ص 26،27 .

10 – الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، المكتبة العصرية بيروت طبعة سنة 1988، ج 1 ص 204 .

11 – المرشد الوجيز، أبو شامة المقدسي، تحقيق: طيار آلاتي قولاج ، 1975 دار صادر بيروت ص 33.

12 – النشر في القراءات العشر، شمس الدين بن الجزري، مراجعة محمد علي الضباع طبعة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع(بدون تاريخ)، ج1.ص6 البرهان في علوم القرءان، بدر الدين الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط2 المكتبة العصرية بيروت (بدون تاريخ)، ج1.ص242، 243 .

13 – الجامع لإحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، مراجعة وتصحيح أحمد عبد العظيم البردوني، طبعة الدار المصرية سنة 1952، مقدمة تفسير سورة طه ، ج 11. ص 163 ، 164.

14 – قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي . المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، تحقيق د.محمد مطرجي، دار الفكر 2002، ج 2 ص 221. وذكره ابن حجر في تعليقاته على حديث زيد في كتاب فضائل القرآن باب كتاب النبي ﷺ، وقال رواه أحمد وأصحاب السنن الثلاثة وصححه ابن حبان والحاكم. فتح الباري ج9.ص22.

15 – رواه الطبراني في المعجم الأوسط، تحقيق د. طارق بن عوض الله الحسيني دار النشر، دار الحرمين القاهرة سنة 1415 ج2. ص257 وفي المعجم الكبير، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي دار النشر مكتبة العلوم والحكم الموصل سنة 1983ج5. ص 142. قال الهيثمي رواه الطبراني بإسنادين ورجال أحدهما ثقاة. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الحافظ نور الدين علي ابن أبي بكر الهيثمي، منشورات مؤسسة المعارف بيروت لبنان طبعة سنة 1986 ج8.ص260 .

16 – رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن باب كاتب النبي ﷺ، حديث رقم 4989، فتح الباري ج9.ص22.

17 – رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن باب كاتب النبي ﷺ، حديث رقم 4999، فتح الباري ج9.ص22

18 – فتح الباري ج9.ص22 و البرهان في علوم القرءان، بدر الدين الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط2 المكتبة العصرية بيروت (بدون تاريخ)، ج1.ص234 .

19 – وهو قرشي ارتد عن الإسلام وأسلم عام الفتح. فتح الباري ج9.ص22

20 – فتح الباري ج9.ص22 .

21 – أي في صيانته

22 – العسب بضم المهملتين: جمع عسيب وهو جريد النخل، وقيل العسب طرف الجريدة العريض . الرقاع: جمع رقعة وقد تكون من جلد أو ورقة أو كاغد وهي قطع الأديم كما ورد في الحديث . اللخاف: بكسر اللام جمع لخفة وهي الحجارة الرقاق . الأكتاف: جمع كتف

وهو العظم الذي للبعير أو الشاة، وهي الأضلاع المذكورة في بعض الأحاديث. الاقتاب: وهو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليركب عليه . ينظر لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر. بيروت ط1، 1/ 598 28/8 660/1.

23 – رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن باب جمع القرآن، حديث رقم 4986، فتح الباري ج9.ص10،11 .

24 – رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن باب كاتب النبي ﷺ، حديث رقم 4990، فتح الباري ج9.ص22 .

25 – رواه ابن أبي داوود في المصاحف من طريق يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب (كتاب المصاحف، ابن أبي داوود الساجستاني، دار الكتب العلمية بيروت ط1 سنة 1975) ص17 وذكره ابن حجر في تعليقه على حديث زيد ـ السابق ـ وسكت عنه في فتح الباري ج9.ص14 .

26 – مدخل إلى القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز ص35.

27 – فتح الباري ج9.ص12

28 – البرهان في علوم القرآن للزركشي ج1.ص262

29 – المدخل لدراسة القرآن، محمد بن محمد أبو شهبة، مكتبة السنة الدار السلفية لنشر العلم ط1 سنة 1972، ص242

30 – مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني ج1.ص253

31 – أي في نسخة واحدة.

32 – أي في نسخ متعددة

33 – هذا استنتاج من الشيخ الدكتور عبد الغفور مصطفى جعفر شيخ القراء والقراءات بمصر، عن حوار سجلته مع فضيلته بجامع الأزهر الشريف. القاهرة في 16 .07 .2002 . ويرجى النظر في مقالات زاهد الكوثري، محمد زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث القاهرة، 1994، ص 118 وتعليق ابن حجر على حديث البراء السابق.